رؤية معرفية

في التَّكْوينِ المِهَنيِّ وَبِنَاءِ الهَوِيَةِ والمَعْنَى

مالك الريماوي

في المعرفة

لا أحب كل أنواع المعرفة، أحب تلك المكتوبةَ بالدم، اكتب بالدم وستعلم أن الدم ذاكرة، ستعلم أن الدم أنت، وستعلم أنك معنى العالم ودمه، فأنت معنى العالم ما دمت تنتج معرفته الجديدة، فالمعنى هنا قلق السؤال ويقظة الدور، والكتابة ليست لقاء اليدِ بالورقة، بل تدفقات معنى ولقاءٌ بالمحظور، قيل لفيلسوف: لماذا لا تؤمن؟ قال: لأبقى وفياً للسؤال.

ما أعنيه هنا، هو: كيف نحوِّل الحياة وسيرتها إلى معنى؟ أي كيف نكون جزءاً من المعنى ودورته؟ وكيف نولج المعنى في الحياة كدم يلونها بلونه؟ كيف نترجم خبرة التجربة إلى معنى نتقاسمه مع الآخرين؟

في المعنى

علينا أن نتشارك في بناء الخبرة والمعنى، قبل أن نتشارك في صناعة الخبز، فمن يصنع معنى العالم يملك الخبز فيه، ومن لم يشارك يبقى عبداً للخبز وللمعنى، فنحن في الحياة نحتاج المعنى أكثر مما نحتاج الخبز.

والمعنى هو ذاك المنبثق من مراقصة القناع للمرآة، مراقصة ينبثق فيها المعنى كصورة للقناع في المرآة، صورة تمثل قناعاً للمرآة التي هي قناع للمعنى.

هذه ليست قصيدة . . . هذه بداية قلقة.

ما سأحاول تقديمه لكم في هذا الإطار هو مقاربة أخرى لفكرة التكوين المهني كمشروع تأملي لتحويل سيرة الحياة إلى معنى نعتاش عليه، ونتقاسمه مع الآخرين.

في الهوية والتكوين المهني

(1)

إن التكوين المهني هو سيرة بناء المهنة كجزء من هوية الذات، تلك الهوية، التي عند انبثاقها "كهوية ذاتية" تكون بمثابة نقطة ارتكاز لبناء الذات كحكاية للنمو المهني والشخصي معاً، فما نسميه ذاتاً هو تأمل من الفرد في هويته الخاصة".

والمقصود بالهوية هنا ليس تعبيراً عن جوهر ثابت أو ماهية أصلية، بل هو الانشغال بالدفاع عن قدرة الذات في أن تصير فاعلة لا في تحديد شكل وجودها وحدود حركتها فحسب، بل في تعديل محيطها الاجتماعي أيضاً، فالهوية الذاتية تتكثف في انشقاقها عن محيطها، وتتشكل وتنمو في الكفاح ضد أعداء الذات، أي ضد منطق الأجهزة والأنظمة، ولاسيما عندما يصبح هذا المنطق صناعات ثقافية، فالانشقاق مطلب أساسي لنمو الوعي وقوة دفع للتاريخ وحركته، ما يجعل من الهوية سؤالاً في التموضع: أين أضع ذاتي وخبرتي؟ وسؤالاً في الفاعلية: كيف أجعل من فعلي وقولي، فعلاً فاعلاً في الحقل السياسي والاجتماعي؟ الشيء الذي يربط التمهين بالهوية، ويربط المهنة بالحياة في فهم يسعى لمحو الحدود بين السياسة والثقافة والهوية الشخصية.

فالثقافات لا تكتسب وضعاً تاريخياً ودوراً عالمياً إلا عندما تتوصل جماعتها إلى درجة من الوعي كافية لدفعها نحو العمل لخلق مواطنين أحرار ومستقلين في سياق بناء الأمة كجماعة متخيلة، "فالأمة ليست مجرد كيان سياسي، بل هي جماعة مترابطة اجتازت ثقافتُها مرحلة الارتجال والتلقائية إلى مرحلة الوعي بالذات"، فانتقلت من الوجود في مرحلة المخيلة وعفويتها إلى مرحلة بناء الأمة كمشروع سياسي ثقافي ينتج الأمة كجماعة قومية متخيلة، من خلال تشغيل التأمل كمراجعة نقدية لعملية بناء الفرد، وتشغيل السرد لبناء نتف الحياة على شكل توليف مقصود وحبكة دالة، وتشغيل الانتقاء كمنهج في تجاوز الارتجال والتلقائية، فكما أننا لا نحتفظ بالماء الوسخ، فإننا لا نرمي بالوليد مع ماء الاستحمام.

فالهوية، طبقاً لما سبق، نص يبنى في سيرة الحياة وعلى سطحها؛ أي في ممارساتها، فالسطح هو الجغرافيا الجديدة للفكر، حيث تتجدد الحياة ويحدث الحدث وتجري الصيرورة.

والهوية صيرورة من الانبثاقات ولحظات مكثفة من التحولات، فالهوية حمالة للإخفاقات كما هي حمالة للإنجازات، فأوقات الأزمات أو التحولات الكبرى في حياة الفرد، هي "فترات البناء الكثيف للهوية"، فالهوية هي تلك القدرة على التغير المستمر بإدماج تجارب جديدة، والهوية، كآلية في التعرف على الذات والتعريف بها، هي آلية دمج وآلية تمييز، فهي ما يجعلك جزءاً من جماعات وهي ما يميزك عنهم.

الشيء الذي يدلل بوضوح على أن التمهين هو تمديد للهوية وتطوير للدور، فهو تلك القدرة على مراكمة التجربة ودمجها الدائم في الذات، وعلى التأمل في الممارسة ونقدها وإعادة تنظيمها أولاً، ثم سردها في إطار سرد يضفي نسقاً دالاً على الممارسة المهنية، ويجعلها جزءاً من سيرة الحياة.

(2)

والتمهين كمشروع في التكوين المهني، حسب فهمنا له، هو إعادة موضعة المهنة، في سياق بناء الهوية الذاتية للمعلم ليس بوصفه مجموعة كفايات ومهارات، بل بوصفه شخصاً وصيرورة، دوراً وعلاقة، جسداً ووعياً، ذاكرة ومشروعاً، وهذا لا يتحقق إلا بربط مشروع بناء الذات في المشروع المجتمعي الإنساني العام، ما يعني أن التكون المهني المستمر هو تعديل في المجتمع، وفي علاقات القوة وأبنية المعنى التي تتخلله، وهو أيضاً -أي التكوين المهني- عمل حول الذات، وشهادة على تفردها، لكونه انخراطاً في إعادة تقويم الذات وتحليلاً ناقداً لممارستها، ما يجعل منه:

أولاً- سؤالاً عن الهوية؛ فالهوية حركة من حركات التموضع، لهذا فهناك سياسات للهوية وسياسات للموضع.
ثانياً- بحثاً للذات عن موقع تتحدث منه؛ موقع يكون فاعلاً في الحقل السياسي الاجتماعي ويعطي قيمة للذات.
ثالثاً- مساءلة دائمة للأبنية الثقافية السياسية التي نعيش من خلالها، وتحريكاً لخطوط القوة والمعنى التي تتخللنا.

ومع أن التكوين المهني مشروع في التغيير الاجتماعي، وجزء من مشروع بناء الذات، فإنه يمثل مشروعاً في الفكر أيضاً، أفضي إلى:

- تحول جذري في أسلوب التفكير، تأويلاً وتقويماً وكتابة.
- تحرير الفكر من عليائه وإعادة إسكانه في سطح الحياة، حيث تتجدد الحياة ويحدث المعنى وتجري سيرة الإنسان.
- تناول العالم ليس بوصفه شيئاً أو موضوعاً قابلاً للكشف، وإنما بوصفه وجوداً مؤولاً أصلاً ونصاً مليئاً بخربشات الآخرين وكتاباتهم، فلم يكن العالم ولن يكون شيئاً في درجة صفر المعنى.
- مقاربة الأنا باعتبارها سيرورة جدل بين الممارسة والقراءة، لا ماهية ثابتة أو معنى سابقاً، فلا وجود للذات بشكل يسبق الممارسة والقراءة.

فكلٌّ منا يكتشف ذاته وهو يبنيها، فيعثر فيما يكتب وفيما يصنع على ذاته "فالإنسان يعثر على مركزه ودوره من خلال قراءته لسيرته ونصوصه، ما يجعل من التأمل في الممارسة أو كتابة السيرة عودة نقدية للذات، عودة تزرع الذات في اتجاه ذات أخرى، حركة تحرر الذات من انغلاقها، فحينما يعاد تشكيل الذات إزاء الآخر، تتحرر الأنا من ذاتيتها لتلتحم بالتاريخ".

وفي هذا السياق، يصبح التمهين مشروعاً في تحليل الممارسة المهنية وسيرة الحياة الشخصية كأساس لبناء المعنى ومساءلة العالم والبحث عن دور فيه، من خلال:

- إعادة تنظيم الممارسة المهنية وتشكيلها كنص مكتوب بلغة تعبر عن ضرورات حياتية ورغبات ذاتية.
- فتح الممارسة وتأملها على الصراع الاجتماعي وتأويلاته المختلفة، التي هي عبارة عن تعبيرات عن مراكز القوة المختلفة فيه.
- تجريب إمكانات جديدة للممارسة، وخلق شروط حرة للتفكير والكتابة وإنتاج المعنى.

(3)

وكما أن للتمهين مبادئ وشروطاً، ورؤىً وفلسفات، فله أيضاً أساليب وأجهزة تجعل منه مشروعاً في متناول كل من يرغب في إنتاج حكاية هي حكايته، ومن هذه المبادئ الإستراتيجية، وهي كثيرة:

1. التساؤل الدائم عما نعلم وعما نفعل؛ أي إعادة الاعتبار للسؤال كفاتحة للفعل البحثي وللبحث في الفعل اليومي، سؤال يضع المعرفة في مواجهة الفعل ويضع السؤال ضد الاثنين معاً، مفاهيم ثلاثة تقدم البحث: سطحه، موضوعه، أداته، في لحظة تشابك وعمل، عمل يُشغل البحث المعرفي كعملية تداخل وعبور بين المعرفة والفعل، فعل يتحول إلى معرفة، معرفة تحرف الفعل وتصوبه، سؤال يعيد موضعة المعرفة والفعل في موضع تضاد وتجابه، يفضي إلى إزاحات ونقلات.
2. وضع التكوين في حالة مواجهة مع الخبرة وليس امتداداً لها، هذا توجه معرفي أولاً، وشكل عمل ثانياً، فمثل هذا التوجه يحتاج إلى فهم معرفي يرى أن الخبرة تبنى في الجسد ذهنياً وإجرائياً بطريقة آلية تراعي الاقتصاد في الطاقة المبذولة والتوافق مع البنية الرمزية للشخص، وتُترجم في جسده على شكل خطاطات عمل ولاشعور عملي، وعلم نحو الممارسات "الهيبتوس" الراسب الثقافي في الجسد على شكل خطاطات طبع وأطباع مخططة في الجسد، على شكل أفعال وسلوكات، خطاطات وترسبات مع الزمن تمتلك تاريخاً يدرعها ويعطيها شرعية تضعها فوق السؤال، ويعني أن الفهم الجديد للخبرة يرى فيها رصيداً يتحول بسبب العادة والألفة إلى حائط يحجب الجديد ويقلص حدود الرؤيا، الفهم الذي يعيد وضع الممارسة ليس كترجمة للخبرة، بل في مواجهتها، مواجهة تعيد جلب الخبرة للفكر ليتفحصها، ويعيد تقويضها وإنتاجها في ضوء نتائج التأمل، ما يؤدي إلى تفكير مفعَّل وممارسة تأملية، تضعهما للعمل ضد الخطاطات التي تحكم سلوكنا، وإنتاج خطاطات ضد التعود، أو ما سماه بياجيه اللاوعي العملي، وأطلق عليه بورديو

"علم نحو الممارسة" ، حيث ثمة قواعد تتحكم فيما ننطق، وأخرى تولد سلوكنا وتتحكم في ردودنا دون أن ندري.

3. قلب منطق الممارسة، من نظام صفي يحدد المعلم ويراقبه إلى معلم يحدد النظام الصفي ويؤجله، ما يعني قلب منطق العمل ليتحرر من المواضعات المكانية والنظامية والخضوع إلى التبريرات العقلية والمتطلبات العملية وحقائق البشر ورغباتهم.
4. عدم الخوف من شريك لنا، شخص آخر يساعدنا على النظر فيما نرفض رؤيته. فالرؤية أداة كاللغة، أداة في توظيفها مستويات تزداد عمقاً وفاعلية بالتعلم والتدرب، وتتضاءل بنمو العادة، ما يعني أن الرؤية ثقافة، فنحن نرى ما تعلمنا رؤيته.
5. توظيف السرد والذاكرة، حيث لا مناص من ضرورة البناء، بناء الحكاية بالكتابة، ما يجعل الأنا تكتشف حالها وموضعها فترضى أو تسعى للتغيير.

أما بخصوص أدوات التكوين المهني، فهي:

1. الممارسة التأملية، وهي التأمل في الموقف وقت حدوثه وضمن معارف متضمنة فيه.
2. الممارسة المتبادلة؛ التشارك مع آخرين في الممارسة وفي ملاحظتها وتحليلها.
3. النهج السريري والكتابة التحليلية، الكتابة كشكل آخر للحديث مع الذات ولقراءة الآخر ومساءلة الهوية.
4. التصوير بالفيديو يمثل ركيزة لملاحظة مرجأة ومجالاً واسعاً للتحليل الذاتي لكيفية فعلنا، وهو أيضاً مواجهة مع الذات ومس للهوية في بؤرتها المركزية.
5. التمثيل ولعب الأدوار؛ لعب الأدوار وتبادل مواقع الذات هو حركة في المجتمع، ولعب في خريطة الذات، ما يجعله عملاً أساسياً في نمو الذات، وفي تنمية اشتباكها مع عالمها، فرؤية الذات مزروعة في ذات أخرى، هي من متع الفضول وفضائل المعرفة. موقف فيه انفصال أكبر وإمكانية أوضح لرؤية الذات وهي تعمل والساتر على وجهها.
6. التجريب الدائم ضمن نتائج الممارسة التأملية، والفكر المفعّل؛ أي الفكر المستخلص من الإحاطة الدائمة بالعمل وإعادة تصحيحه وتأويله بشكل مستمر.
7. المقابلة والتداعي؛ إجراء حديث مفتوح حول العمل، حديث يكشف أننا نعرف أكثر مما نعتقد، حديث ينظم ما نعرفه بشكل مشوش.

ما يعني أن تكويناً مستمراً ينتقل من الممارسة إلى الممارسة مروراً بالتحليل والتأمل والتخييل، هو بالتأكيد توجه للتعلم الذاتي، وانخراط نقدي في مشروع تقدير الذات، وصيانة دائمة لدورها المهني والاجتماعي.

مشاركون في المؤتمر التربوي الثاني.